

المتغيرات الاجتماعية وعلاقتها بالتنوعات اللغوية عند الجاحظ. Social variables and their relationship to linguistic diversity in Al-jahiz.

بورزان نورالدين*، كلية الآداب واللغات جامعة سطيف 2
nouredineaoumohamed@gmail.com
مخبر المقاربة التداولية وتحليل الخطاب.

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/04/25

تاريخ الاستلام: 2026/03/12

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى محاولة استجلاء أثر العوامل الاجتماعية المختلفة على متكلم اللغة عند الجاحظ، وبيان مدى تأثر التركيب اللغوي بتلك النظم، من قبيل الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها متكلم اللغة، وجنسه، وعرقه، وعمره، وثقافته والإطارين المكاني والزمني اللذين يستخدم في كنفهما اللغة، والمهنة التي يمارسها؛ فكل تلك العوامل لا بد وأن تنطبع بصمتها على اللغة، فتتجلى على إثرها ملامح الهوية، وأبعادها الاجتماعية والثقافية والعرقية والدينية والمهنية...

الكلمات المفتاحية: الجاحظ، المتغير الاجتماعي، اللغة، الطبقة الاجتماعية، العرق.

تصنيف JEL : XN1، XN2.

Abstract:

This research paper seeks to uncover the relationship between various social factors and language in Al-Jahiz's work, and to demonstrate the extent to which linguistic structure is influenced by these systems, such as the speaker's social class, gender, ethnicity, age, culture, the spatial and temporal frameworks within which the language is used, and the profession they practice. All of these factors inevitably leave their mark on language, thereby revealing the features of identity and its cultural, ethnic, religious, and professional dimensions...

Keywords: Al-Jahiz, social variable, language, social class, ethnicity.

Jel Classification Codes: XN1, XN2.

* د. بورزان نورالدين
مقدمة:

يخضع التنوع السوسيولساني إلى عدة عوامل ومؤثرات اجتماعية في حال تداخلها وتفاعلها مع اللغة، بما أن الأخيرة هي صورة صوتية تعبر عن طبقة وثقافة وجنس وعرق وعمر وبيئة المتكلم الزمانية والمكانية، فهي الترجمان عن الخصائص الفردية للمجموعة أو الجماعة التي ننتمي إليها.

إن كل تلك العوامل والمؤثرات وغيرها تسهم بشكل فعال في تحديد مسار اللغة، وتنحى بها إلى التنوع والتغير والتطور، فالمتغيرات الاجتماعية اللغوية تعد الأساس لفهم كيفية تنوع اللغة بتنوع الفئات والسياقات الاجتماعية المختلفة؛ هذا التنوع الذي تتجلى سماته على مستوى الصوت والمعجم والنحو والصرف، فينعكس على مستوى الخطاب ككل. وهو ما يساعد الباحث في شؤون اللغة والمجتمع على فهم مسألة تأثير مستخدم اللغة بتلك النظم الاجتماعية المختلفة، والذي ينتج عنه -حتمًا- تنوعًا في المجتمعات الكلامية **Language communities**.

فهل عرض الجاحظ لهذه المسألة عبر ما نثره في مصنفاته من أفكار وخواطر؟ وكيف أشار إليها إن ثبتت عنده؟

قبل الإجابة عن هذه الإشكالية، لا بد لنا أن نقدم تعريفًا وجيزًا للغة وآخر للمجتمع، ونستشعر العلاقة بينهما.

فالفرد في مجتمعه الكلامي يمثل تلك العناصر التي سنفصلها لاحقًا:

1. مفهوم اللغة:

لا شك أن تعريفات اللغة متعدّدة ومتنوّعة عند القدماء والمحدثين، ولعلّ من التعريفات التي نالت الإشادة والترحيب من قبل اللغويين والنقاد قديما وحديثا تعريف ابن جنّي الذي يقول فيه: "أما حدّها فأصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم". (جني، الخصائص، 1999، صفحة 33)

فهذا التعريف يعبر عن حسّ لغويّ مرفه ودقّة ملاحظة غير مسبقة، وقد نال اهتمام اللغويين العرب المحدثين من أمثال عبد الصبور شاهين في كتابه: علم اللغة العام، ومحمود فهمي حجازي في كتابه: مدخل إلى علم اللغة، وحلمي خليل في كتابه: مقدّمة لدراسة علم اللغة. (داود، 2001، صفحة 33)

ولعلّ من دواعي الإشادة بهذا التعريف اشتماله على جملة من السمات التي تختصّ بها اللغة ومن أبرزها:

- صوتيّة اللغة.
- تعبيرية اللغة.
- اجتماعية اللغة.
- عرفية اللغة.

وهي السمات التي نجدها عند أعمدة اللغة المحدثين، وأبرزهم العالم السويسري دي سوسير الذي حيث يقول: "نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية في أذهان الجماعة اللغوية، يحقق التواصل بينهم، ويكتسبها الفرد سماعا من جماعته". (داود، 2001، صفحة 44/43)، فهو بهذا التعريف يجاري ابن جني فيما ذهب إليه، سوى أنه أضاف مصطلح النظام (System)

وباختصار فإنّ المختصّين في علم اللغة يرون أنّ اللغة مجموعة منظمة من العادات الصوتية التي يتفاعل بواسطتها أفراد المجتمع الإنساني، ويستخدمونها في أمور حياتهم.

2. مفهوم المجتمع:

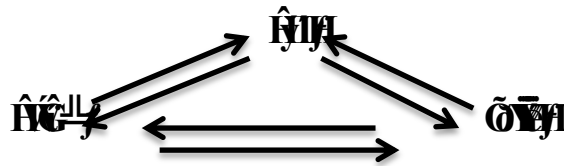
هو عدد كبير من الأفراد المستقرّين الذين تربطهم روابط اجتماعية، ومصالح مشتركة، ترافقها أنظمة تهدف إلى ضبط سلوكهم، ويكونون تحت رعاية السلطة. (الرزاق، بناء الإنسان، 2013، صفحة 187)

كما يعرف المجتمع بأنه مجموعة من الأشخاص مكتفون بذاتهم، ومستمرّون في البقاء، ويتنوّعون بين ذكور وإناث. (الجزولي، 2001، صفحة 31)

ويعرّف علماء الاجتماع المجتمع بأنّه أكبر جماعة يمكن أن ينتمي إليها الأفراد، وله القدرة على التكيف بذاته، وأن يكون مكتفيا بحيث يستمرّ في حياته باستمرار حياة الإنسان. (الجوهري، 2010، صفحة 23)

3. علاقة اللغة بالمجتمع

233

[illegible]

4. اللغة والمتغير الاجتماعي:

اللغة عنوان الهوية، ووسيلة تعبر من خلالها عن الذات، ف عندما "نستخدم اللغة فنحن نكشف عن خصائص تتعلق بعمرنا وجنسنا ومستوانا التعليمي، وطبقتنا الاجتماعية وعرقنا وغير ذلك. وكل من هذه الخصائص تكشف أيضا عن خصائص ثقافية أو تاريخية أو اجتماعية معينة للمجتمعات والمناطق والفترات الزمنية التي شكلت هويتنا، وهذه الخصائص الفردية ذات صلة بالمجموعة التي ينتمي إليها الفرد. واللغة بهذا المفهوم تحدد المجموعات التي ننتمي إليها، والتي نحن على اتصال بها..." (غالي، 2023، صفحة 197)

1.4 اللغة والطبقيّة الاجتماعيّة:

إن مفهوم الطبقيّة مفهوم معاصر، ظهر بقوة في الأدبيّات الماركسيّة، وهو مفهوم يدلّ على وجود تفاوت طبقيّ في المجتمع، سواء أكان هذا التفاوت اقتصادياً أم اجتماعياً، ولا نعرف متى دخلت فكرة الطبقة بوصفها وحدة اجتماعيّة كبيرة، ذات مدى رحب في تركيب المجتمع الإنسانيّ، ففي تاريخ الإنسان المكتوب لا نجد حضارة تألّقت ثم انطفأت إلّا وكانت تعرف فكرة الطبقات، وكان لهذه الفكرة واقع عيانيّ، يضرب بجذوره عميقاً في التّظيم الاجتماعيّ، وهذا يعني في ظاهر الحال، أنّه لم يمرّ على البشريّة وقت طويل لم تعرف فيه فكرة الطبقات. (الدين، 1981، صفحة 27)

"فالتّطبّقة ظاهرة اجتماعيّة عرفتْها جميع الشّعوب، بدائيّة كانت أو متحضّرة، وأيّاً كان الحديث عن مساوئ التّوزيع الطّبقيّ، وعن بعده عن العدالة الاجتماعيّة التي تطالب بها الدّيمقراطيّة الحديثيّة، فالتّطبّقة تبقى وتستمرّ". (فرحان، 2023، صفحة 153) بل "إنّ وضوح حقيقة الطّبقات يزداد في حياتنا الجاريّة، فالمرء يولد في طبقة معيّنة، ويختلط بأفراد من الطبّقة التي ينتمي إليها، ويختار زوجة عادة من محيطه وطبقته، وقد يرتفع المرء إلى طبقة أعلى، أو يهبط إلى طبقة أدنى،...ومصير كلّ فرد مرتبط إلى حدّ كبير بمصير الطبّقة التي ينتمي إليها". (جويستان، 2011، صفحة 15)

وبوجود الطبقات الاجتماعية، فإنه من الضروري أن يوجد ما يلائمها من المستويات اللغوية التي يؤديها أفرادها؛ "وعادة ما تكون تلك اللغة وليدة العادات والتقاليد والأعراف التي يؤمن بها أفراد تلك الطبقة الاجتماعية، فتكون إما لغة أدبية، أو لغة وطنية، أو لهجة عامية، أو دارجة، وإن هذه الفروق الطبقيّة في اللغة تعدّ أكثر فعالية في اللغات الثقافيّة الكبيرة المهمّة منها في اللغات الأقلّ ثقافة، ومع ذلك ففي بعض الحالات يمكن للنوع الأخير من اللغات أن يمثّل ما يعدّ من الناحية العمليّة طبقات اجتماعيّة، عن طريق استعمال مجموعة من الناس لعدد من الصيغ المنبوضة لدى مجموعة أخرى من المتكلمين باللغة نفسها، وفي بعض القبائل الهندية والأمريكية مثلا تتكلّم المرأة لغة تختلف إلى حدّ بعيد عن لغة الرجل". (فرحان، مقاربات سوسيو لسانية، 2023، صفحة 154)

فنحن ندرك تماما تلك الاختلافات في أنماط الكلام التي تتميز بها الفئات الاجتماعية المختلفة، التي غالبا ما يكون أفرادها قادرين على ضبط أسلوبهم بما يتوافق مع أسلوب طبقته الاجتماعية.

فمن الناحية العلمية نجد أنّ لكل لغة مستويات تختلف باختلاف الطبقة الاجتماعية أو التعليمية، وينتج عن ذلك ما يسمّى باللّغات الطبقية (Class Languages). (فرحان، مقاربات سوسيو لسانية، 2023، صفحة 154)

وإلى جانب ذلك فقد ترتبط اللغة بالحرفة التي يمتنها متكلم اللغة، وقد تتصل بعوامل أخرى كاليئة أو الثقافة أو الجنس أو السن، والحرفة، والعادات والتقاليد، وغيرها من العوامل التي سنفصل فيها لاحقاً، والتي تمخض عنها ما يعرف اليوم بمصطلح "اللهجات الاجتماعية" (Social Dialects)، حيث تتشعب لغة المحادثة في البلد الواحد، أو المنطقة الواحدة إلى لهجات تبعا لاختلاف طبقات الناس وفئاتهم، من الطبقة العليا إلى الطبقة الدنيا، حيث يظهر هذا التنوع جلياً في السلوك اللغوي لكل طبقة، وتبعاً لذلك يظهر ما يسمى بالجماعات الكلامية (Speech Communities)، وهو مصطلح يستخدم للدلالة على جماعة تعرف على أساس اللغة" (هدسون، 2014، صفحة 45)، فالخصائص اللغوية التي تميز فئات المجتمع على اختلاف ثقافتها، ونشاطاتها، ودياناتها، وانتماءاتها المذهبية والبيئية... هي -في حقيقتها- بمثابة بطاقة تكشف عن هوية المتكلمين الذين ينقسمون إلى زمر تجمعهم رموز كلامية مشتركة فيما بينهم، وتميزهم بشكل أو بآخر عن غيرهم؛ فالمتغير اللغوي إذن هو عرضة للتأثر بالمتغيرات والأنماط الاجتماعية المختلفة التي تفرض نفسها بشدة على المستويات اللغوية المختلفة، فتفتح المجال فسيحاً أمام ظاهرة التنوع والتعدد اللغويين.

"وبشكل عام فقد وجدت الدراسات الكثيرة الحديثة علاقة وثيقة بين الفئة التي ينتمي إليها الفرد وأنماطه اللغوية" (غالي، نحو لسانيات اجتماعية عربية من النظرية إلى التطبيق، 2023، صفحة 200).

وهذا ما نجده في قول الجاحظ في معرض حديثه عن ألفاظ السوق والعوام والأعراب والبدو، ودرجات التفاضل والتفاوت في كلام الناس في المجتمع، حيث يقول: "وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفسهم في طبقات". (الجاحظ، /، صفحة 144)

ومن هنا أصبح هذا المتغير مؤشراً حقيقياً لدراسة ذلك التنوع والتغير اللغوي الحاصل على مستوى المجتمع الواحد الذي تشكله طبقات وفئات اجتماعية متباينة بتباين عوامل عدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأفراد كل طبقة.

2.4. اللغة والثقافة:

تعرف الثقافة بـ "أنها نوع من المعرفة نتعلمها من الآخرين، سواء من خلال التعليم المباشر، أو مراقبة سلوك الآخرين" (هدسون، 2014، صفحة 130)، فالثقافة حسب هذا التعريف هي مجموع المعارف التي نتعلمها في مجتمعنا سواء عن طريق التعليم المنهج، أو عن طريق ملاحظة السلوكيات الفردية أو الجماعية التي تمارس في إطار المنظومة الاجتماعية التي ننتمي إليها؛ ولعل من بين ما نتعلمه في المجتمع وما نراقبه من سلوك عنصر اللغة، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعرفة، بل هي عينها وسيلة من وسائل المعرفة.

كما يقصد بالثقافة "مجموع التركة التي يرثها جيل عن جيل من تقاليد وعادات ونظم معيشة ودين وفن ولغة وهلم جرا". (حسان، 2001، صفحة 171)

لذا فإن العلاقة بين اللغة والثقافة تبرز في كون اللغة جزءاً لا يتجزأ من الثقافة، وهي -أي اللغة- عمومية من عمومياتها. (دمياطي، 2017، صفحة 113)

ومن المعروف "أن هناك صلة بين اللغة التي تتحدث بها جماعة اجتماعية من الناس، وبين هوية هذه الجماعة، فمن خلال اللهجة التي ينطقون بها، والمفردات التي يستخدمونها، وأنماط الخطاب التي يستخدمونها، يقوم الناس بتعريف أنفسهم وهم لا يشعرون، ويعرفهم الآخرون بوصفهم أعضاء في هذه اللغة أو تلك، أو هذا الخطاب الاجتماعي، أو ذاك". (كرامش، 2010، صفحة 111/112)

فاللغة تضطلع بالتعبير عن واقع ثقافي معين، فهي عندما تُستخدم في سياقات التواصل، وتتعدّد الصلة بينها وبين الثقافة في نواح كثيرة ومتشابهة؛ حيث إن الكلمات التي ينطق بها الناس "تشير إلى مخزون من المعرفة بهذا العالم يشترك فيه آخرون". (كرامش، 2010، صفحة 100/101)

ولعل اللغة هي واحدة من الأنماط الثقافية (Cultural patterns) التي تعبر -إلى جانب الأنماط الأخرى كالدين والفن والعرف والعادات والتقاليد، ونظام المأكل والمشرب، ونظام الملابس والأزياء- عن السمات الثقافية الخاصة بمجتمع من المجتمعات، لذا فإن "لغة أي مجتمع مظهر من مظاهر ثقافته، ومحاولة فصل اللغة عن الثقافة يعدّ عملاً منافياً لطبيعة كل منهما، ولهذا يمكن أن نصنّف اللغة بنفس الطريقة التي نصف بها الثقافة، لأن الأشكال اللغوية لا تختلف عن الأشكال الثقافية، ولأن كلاهما يمتلك وجوداً مادياً ومعنوياً، فالأولى تظهر

في شكل علامات أو كلمات مكوّنة من أصوات، وتحمل دلالات معيّنة، والثّانية تظهر في شكل صور مادّيّة لها قيمة دلاليّة، أو استجابيّة من قبل الجماعات". (الدين، /، صفحة 101/100)

ويذكر الدكتور كريم حسام الدين في كتابه اللّغة والثّقافة أنّ "اللّغة نسق من العلامات (Signs) نعدّه ذا قيمة ثقافيّة، لأنّ المتحدّثين يعبرون عن هويّتهم وهويّة الآخرين من خلال استخدامهم لها؛ فهم يرون أنّ استخدامهم للغتهم رمز لهويّتهم الاجتماعيّة وثقافتهم، وعليه يمكن القول: إنّ اللّغة ترمز إلى واقع ثقافيّ" (الدين، /، صفحة 16).

فمن خلال اللّغة نستطيع —إذا استمعنا جيّداً— التّمييز بين رجل متعلّم وآخر غير متعلّم، ومن خلالها أيضاً يمكننا أن نميّز بين عليّة القوم وعامّتهم، فهي المعيار الذي ينكشف من خلاله مستوى الفرد الثّقافيّ والاجتماعيّ. وفي هذا السّياق فقد أورد الجاحظ الكثير من النّصوص الّتي تثبت أن متكلّم اللّغة إنّما تجري على لسانه ألفاظ نابغة عن ثقافته الدّينيّة أو الأخلاقيّة أو من تلك العادات والسلوكيّات الّتي ورثها من مجتمعه وتطبع عليها، ولهذا فإنّنا نجدّه يفرد في بيانه بابا موسوماً بـ (أن يقول كلّ إنسان على قدر خلقه وطبعه) (الجاحظ، /، صفحة 170)، فيورد فيه جملة من النّصوص لمتكلّمين يمثّلون ثقافات مختلفة، ولعلّ من أبرز النّصوص الّتي أوردها الجاحظ في هذا الباب ما يرويه عن المسيح عيسى عليه السلام، فقال: "قالوا: ومّرّ المسيح عليه السلام بخلق بني إسرائيل، فشتّموه، فكلمّا قالوا شراً قال المسيح صلى الله عليه وسلّم خيراً، فقال له شمعون الصّفا: أكلما قالوا شراً، قلت لهم خيراً؟ قال المسيح: ((كلّ امرئ يعطي ممّا عنده))" (الجاحظ، /، صفحة 177).

فكلام نبي الله عيسى عليه السلام كلام نبويّ، لا ينطق إلّا خيراً وحسناً، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يكون ككلام أعدائه الّذين يكتّون له الشرّ والسّوء، وقد لمسنا ذلك في جواب المسيح حين قال: ((كلّ امرئ يعطي ممّا عنده))، أي أن من نشأ على الشرّ والإساءة، لا تعدو لغته أن تكون سباباً وشتماً وقذفاً، ومن نشأ على الخير والإحسان لا تعدو أن تكون لغته حلماً وعفواً وسماحة. فخطاب الخير وخطاب الشرّ لا يجتمعان لدى متكلّم واحد، بل الأوّل متاح لمن تشبّع بثقافة الخير، وينعكس ذلك على لغته، والثّاني متاح لمن نشأ على ثقافة وخلق وطبع الشرّ، وينطبع ذلك على منطقه.

وفي ذات الباب يورد الجاحظ كلاماً لبعض شعراء الجاهليّة الّذين نشأوا على طبع معيّن ليستدلّ على اشتغال لغتهم على سمات ما جبلوا عليه من ثقافة وأعراف، فيقول: "قيل لامرئ القيس بن حُجر: ما أطيب عيش الدّنيا؟ قال بيضاء رُعبوبة، بالطّيب مشبوبة، بالشّحم مكروبة، وسئل عن ذلك الأعشى فقال: صهباء صافية، تمزجها ساقية، من صوب غادية، وقيل مثل ذلك لطرفة بن العبد فقال: مطعم شهّي، وملبس دفي، ومركب وطّي" (الجاحظ، /، صفحة 178).

من خلال هذا النّصّ نستشف بعض المؤشّرات الثّقافيّة لكلّ شاعر بالنّظر إلى لغته، وهو ما يوضّحه الجدول التّالي:

الشّاعر	الألفاظ المستعملة	دلالتها	الانتماء الثّقافيّ
امرؤ القيس	بيضاء، رعبوبة، الطّيب، مشبوبة، الشّحم، مكروبة.	وصف حياة اللّهُو والتّرف والمجون.	نشأ الشّاعر نشأة المترفين من أولاد الملوك في لهو لعب ومعاقرة الخمر ومغازلة الحسان (الهاشمي، 2003، صفحة 254/255)، فأجاد الغزل والنّسيب.
الأعشى	صهباء، صافية، تمزجها ساقية، الصّوب.	وصف الخمر.	اشتهر الأعشى بالمبالغة في وصف الخمر، والتّفنّن في تصويرها، لذلك قيل: "أشعر النّاس امرؤ القيس إذا

ركب، وزهير إذا رغب، والتأبغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب". (الهاشمي، 2003، صفحة 265) لذلك ارتبط اسمه بالمجالس والنوادي، والحياة اللاهية، حتى أدرك الإسلام، فأعد قصيدة يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم...، لقب بصنّاجة العرب لقوة طبعه، وجلبة شعره. (الهاشمي، 2003، صفحة 265)			
نشأ طرفة بن العبد في بؤس حادّ، وفاقة شديدة، لظلم أعمامه له في إرث أبيه، وضيقوا عليه، فعاش طفولة مهملة لاهية طريفة، راح يضرب في البلاد، يتكسّب، ويلتمس العطايا، حتى بلغ في تجواله بلاط الحيرة، واتصل بعمر بن هند الذي جعله من ندمائه، ولم يبخل عليه بمعرفته وجوده... (الهاشمي، 2003، صفحة 263)	وصف رعد العيش.	مطعم شهّي، ملابس دفي، مركب وطّي.	طرفة بن العبد

فالملاحظ أنّ هذه الفكرة لم تغب عن بديهة الجاحظ، لأنّه أدرك أنّ هذه السمة اللغوية تجري على ألسنة فئات المتكلمين المختلفة، حيث يتجلى الأثر الثقافي في اللغة، وقد أشار في كتابه البخلاء إلى هذه القضية في أكثر من موضع، كما يتّضح في قصّة (أسد بن جاني) (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 102)، الذي كان طبيباً عربياً على دراية بالأعراف الدينية الإسلامية والنصرانية، وقد حلّ بطبّه الكساد، فسأله سائل مستفزاً بقوله: "السنة وبنة، والأمراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتى في هذا الكساد؟" (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 102)، فيجيب سائله كاشفاً له عن هويته الدينية: "قال: أمّا واحدة فإنّي عندهم مسلم؛ وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبّب، لا بل قبل أن أخلق، أنّ المسلمين لا يفلحون في الطبّ، واسمي أسد، وكان ينبغي أن أسمى صليبا وجبرائيل ويوحنا وبيرا، وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى، وأبو زكريا، وأبو إبراهيم؛ وعلي رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون ردائي حريراً أسود؛ ولفظي لفظ عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جندى سابور". (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 102)

فعلى الرغم من أنّ هذا الطبيب يروي أسباب فشله في الطبابة بنبرة توحى بتدّمّره من موقف الخاصّة والعامة من الأقليات الدينية الأخرى التي كانت تشكّل المجتمع العباسي من النصارى واليهود والزرادشة والمناويين، الذين أنزلوا منزلة خاصّة، ولا سيما النصارى في حقل الطبّ ذلك العهد. (جبر، /، صفحة 34) إلا أنّ لغته -من جانب آخر- تعبّر عن ثقافته ومعرفته النافذة بعادات المسلمين والنصارى، في مجال الأسماء والكنى المتداولة لديهم، فضلاً عن اللباس الذي تعرف به كل طائفة، واللغة التي يتكلمون بها؛ وكلّها تعبّر عن الرصيد الثقافي للمتكلّم. وهو ما يمكن إيضاحه في الجدول الآتي:

الأنماط الثقافية	الاسم	الكنية	اللباس	اللغة
الإسلام	أسد.	أبو الحارث.	رداء قطن أبيض.	العربية.
النصرانية	جبرائيل، يوحنا،	أبو عيسى، أبو	حرير أسود	لغة أهل جندى

بيرا.	زكريا، إبراهيم.	أبو	سابور.
-------	--------------------	-----	--------

كما أن لثقافة البخل الشائعة في عصر الجاحظ أثرا جليا على في لغة الشخصية البخيلة، التي صار البخل مذهبها، والتقتير عقيدتها، فأصبحت تمارس طقوس البخل في أسمى درجاته، وتتنافس على التدرج في سلال الشح، حتى تبلغ مرتبة التمكن في هذا المذهب، فقد اعتنق هؤلاء إيديولوجيا البخل، فغدوا يتنافسون ويتحاربون على أساسها، ويجتمعون ويعقدون الحلق والتدوات في النوادي والصالونات لأجلها، وقد حولوا معتقدهم إلى عصبية، ولنا في "قصة أهل البصرة والمسجدين" (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 29) خير مثال على ذلك. يقول الجاحظ: "اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة، والتثمين في المال، من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب عندهم، كالنسب الذي يجمع على النحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر. وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذكروا هذا الباب، وتطارحوه وتدارسوه، التماسا للفائدة، واستمتاعا بذكره" (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 29)، ولعل هذه الثقافة هي وليدة الأوساط الفقيرة الشحيحة التي ساق الجاحظ الأحاديث على ألسنة أصحابها، فكانت لغتهم انعكاسا واضحا لثقافتهم البسيطة، التي يميزها الحرص على كسب المال بثنى السبل، وتوفيره، والتقتير في تناول الطعام حتى يتجنبوا إنفاق المال الذي يورث حسب ظنهم. الهم والبؤس، وفي هذا السياق يروي الجاحظ حديث أحد بخلائه يسمى بأبي عبد الرحمن وهو يعظ ابنا له أن يحرص على المال، فيقول: "وأبو عبد الرحمن هذا شديد البخل، شديد العارضة، غضب اللسان، وكان يحتج للبخل، ويوصي به، ويدعو إليه. وما علمت أن أحدا جرد في ذلك كتابا إلا سهل بن هارون وهو. وأبو عبد الرحمن هذا هو الذي قال لابنه: أي بني: إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير. والعشرات تفتح عليك أبواب المثين، والمئون تفتح عليك أبواب الألوف...

أي بني: إنما صار تأويل الدرهم ((دار الهم))، وتأويل الدينار ((يدني إلى النار))، الدرهم إذا خرج إلى غير خلف، وإلى غير بدل، دار الهم على داني مخرجه. وقيل إن الدينار يدني إلى النار لأنه إذا أنفقه في غير خلف، وأخرج إلى غير بدل، بقي مخفقا معدما، وفقيرا مبلطاً متحرّج المخرج. وتدعوه الضرورة إلى المكاسب الرديئة والطعم الخبيثة". (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 106/105)

فالمتمثل في لغة هذا النص يدرك من الوهلة الأولى شخصية المتكلم المتشعبة بثقافة الشح والتقتير، فلغة الحرص على جمع المال من القراريط والدوانيق والدراهم والدنانير، والتدرج في الكسب من العشرات إلى المثين إلى الألوف، وألفاظ الفقر والهم، وتأويل الدرهم بأنه دار للهم، والدينار يدني إلى النار، كلها مؤشرات تقودنا إلى استشعار ثقافة المتكلم التي استمدّها من تجربته الشخصية في امتهان جمع المال والبخل به، وإنما أتى بهذا الكلام احتجاجا لمذهبه والبخل، ودفاعا عنه.

وفي (قصة الثوري) (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 103)، يسوق لنا الجاحظ كلاما يحمل بين ثناياه وعظا ونصحا من قبل الثوري لعياله، وفي الوقت ذاته يعبر عن معرفته البسيطة بابتلاع نوى التمر، ويخبر بفوائده الغذائية، ويطلب من عياله عدم التفريط في ابتلاعه، منتهجا لأجل هذه الغاية أسلوب الإقناع، حين دعم كلامه بالشواهد الملموسة، والحجج الواقعية، التي يراها مناسبة؛ فهذا أسلوب آخر من الأساليب التي تعبر عن ثقافة المتكلم وعقيدته البخيلة، وحذاقته في مجال البخل؛ يقول الجاحظ: "وكان يقول لعياله: لا تلقوا نوى التمر والرطب، وتعودوا ابتلاعه، وخذوا حلوكم بتسويغه. فإن النوى يعقد الشحم في البطن، ويدفي الكليتين بذلك الشحم. واعتبروا ذلك ببطن الصفايا، وجميع ما يعتلف النوى. والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى، وعلى قضم الشعير واعتلاف القث، لوجدتموها سريعة القبول. وقد يأكل الناس القث قذاحا، والشعير فريكا، ونوى البسر الأخضر، ونوى العجوة..." (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 103).

فالمتكلم يأتي بألفاظ مثل: والبزر والنوى، والقث والشعير، ونوى البسر، ونوى العجوة، وكلها ألفاظ تنم عن معرفة المتكلم بالحقل المعجمي للنوى والحبوب الجافة.

ومن أبلغ ما يورده الجاحظ في البخل الذي أصبح تقليدا يُحتذى به، ونحلة تُتبع، هذا الحوار الذي دار بين أعرابي وثلاثة من أبنائه، والذي يقول فيه: "وقال الأصمعي: تعرّق أعرابي عظما، فلما أراد أن يلقيه، وله

بنون ثلاثة، قال له أحدهم: ((أعطني))، قال: ((وما تصنع به؟))، قال: ((أتعرقه حتى لا تجد فيه ذرة مقيلا))، قال: ((ما قلت شيئا))، قال الثاني: ((أعطني))، قال: ((وما تصنع به؟))، قال: ((أتعرقه حتى لا يدرى ألعامه ذلك أم هو للعام الذي قبله))، قال: ((ما قلت شيئا))، قال الثالث: ((أعطني))، قال: ((وما تصنع به؟))، قال: ((أجعله مخه إدامه))، قال: ((أنت له))". (الجاحظ، البخلاء، /، صفحة 222)

فالرجل يختبر بنيه أيهم أجدر بمكانة التقدير والشح، ليرسخ فيهم هذه السجية النافذة في المجتمع؛ وقد ساق الجاحظ هذه الحادثة بلغة هؤلاء البخلاء التي تكشف عن ثقافة قوم تحكمهم طقوس الشح، والبخل، وحرمان النفس مما تشتهي من مطعم ومشرب؛ فالإلحاح في الطلب، والتنافس على إبداء الحجة الدامغة للظفر بالعظم، دافعه الحرص على الإمساك وعدم إنفاق المال. لذلك لم تحد لغتهم عن أسمى معاني البخل والجشع، ذلك لأن اللغة تتأثر بالطبائع والعادات السلوكية الشائعة في المجتمع.

3.4. اللغة والبيئة المكانية والزمانية:

قد يتأثر المعجم اللغوي بالمظاهر الطبيعية المحيطة بالبيئة، "فعلى سبيل المثال يوجد لدى الأسكيمو كلمات كثيرة لمختلف أنواع الثلج (Snow)، أما العربية فليها العديد من الكلمات التي تدل على الرمل (Sand)، والجمال (Camel)، فهذه الكلمات -بالإضافة إلى أنها تعكس البيئة الطبيعية لمستخدمي اللغة- فهي تشير أيضا إلى اهتماماتهم، وحاجاتهم وما يشغل تفكيرهم". (دمياطي، 2017، صفحة 113)

فالبينة التي يعيش فيها الأعرابي -مثلا- "تشكل جسمه، وعضلات نطقه بطريقة تجعلها مستعدة لإخراج تلك الأصوات، على حين أن سكان المدن يميلون إلى رقة الألفاظ، وانخفاض الأصوات، ويتضح ذلك من تأذي النبي صلى الله عليه وسلم من سماع أصوات الأعراب العالية حين قدموا عليه في المدينة، فطالبهم القرآن بعدم رفع أصواتهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) الحجرات 2. (هلال، 1986، صفحة 145)

فالبيئة المكانية -إذن- أثرها على اللغة، وقد لاحظ اللغويون أن لغة الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول وأراض زراعية ومدن صناعية؛ ف لغة الصحراويين خشنة الألفاظ، غليظة الأصوات، إذ يحتاج الصحراوي إلى صوت مرتفع غليظ يُسمع في الفراغ الذي أمامه، ويصل إلى ما يريد من أماكن، غير أنه بعد تحضر البدو وإقامتهم في المدن لوحظ تغيير في طريقة التعبير، وأداء الأصوات، ونظام القواعد، فقلت اللهجات، وبرزت القرشية كلغة عامة بين العرب. (وافي، 1973، صفحة 136)

وقد ذكر الجاحظ هذه المسألة في كثير من الخواطر المنثورة في كتبه، حيث يقول في كتابه (مناقب الترك) (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 2)، في رسالة إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل العباسي، الذي كان أدبيا شاعرا فصيحاً بارع الذكاء يخبره فيها باختلاف الألسن عند العرب أنفسهم، تبعا لاختلاف الأقاليم التي يقطنونها، فكتب يقول: "وزعمت أن اختلاف التركي والخرساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي، ولا كاختلاف الرومي والصقلبي، والزنجي والحبشي... وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغة، وفارق بعضهم بعضا في بعض الصور، فقد تخالفت غليا تميم، وسفلى قيس، وعجز هوازن، وفصحاء الحجاز في اللغة، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير، وسكان مخاليف اليمن... وكلهم مع ذلك عربي خالص، غير مشوب ولا معلج ولا مذرّع ولا مزلج" (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 10).

فقد أكد الجاحظ على اختلاف لهجات العرب باختلاف بيئاتهم اللغوية، على الرغم من أنهم ينحدرون من أصل واحد، وينسلون من نسل واحد، ليس فيهم المعلنج أي الهجين، ولا المذرّع الذي يولد من أم عربية وأب غير عربي، ولا المازق الذي ليس من العرب أصلا ونسبا، فأثر البيئة والمحيط يتجلى حتما في لغة المنتمين إلى منطقة ما، تفصل بينها وبين المناطق الأخرى حدود طبيعية أو جغرافية، وهذا ما يعرف حديثا باللهجات الجغرافية (Geographic dialects).

كما أن للزمان أثره على اللغة؛ "فقد لاحظ جماعة من اللغويين أن أعضاء النطق تختلف من جيل إلى جيل آخر، فهي -عند الأبناء- تختلف عند الآباء، وعند الآباء تختلف عن حالها عند الأجداد، وهكذا تتطور أعضاء النطق عند الجماعة الواحدة، من عصر إلى عصر، وإن كان التطور يسير ببطء لكنه يؤثر في ألفاظ اللغة، وبخاصة في أصواتها". (هلال، 1986، صفحة 147)

فانتقال اللغة من جيل إلى جيل يترك أثره في أصوات اللغة ومفرداتها ونظمها وتراكيبها. (هلال، 1986، صفحة 26) وقد لوحظ هذا التغير اللغوي عبر الزمان في لغتنا العربية، فعلى مستوى الصوت مثلا- لوحظ تحول نطق الذال إلى الزاي، فضلا عن فقدان الإعراب في العاميات، وتقصير الحركات الطويلة أو حذفها، وخلق حركات غريبة.

فإذا نظرنا في لغة ما عبر آلاف السنين، توقعنا منطقياً أن تلك اللغة أدت بلهجات متنوعة عبر القرون المتتالية، ومن الممكن أن بعض تلك اللهجات لم تعد موجودة حالياً، فهي لهجات بائدة. وبالمقابل فإن بعض اللهجات تلك اللغة مازالت مستخدمة في الوقت الحاضر، فهي لهجات حيّة. ويصعب الخوض في اللهجات البائدة نظراً لعدم وجود تسجيلات صوتية لها. (الخولي، 2000، صفحة 166/167)

4.4 اللغة والجنس:

لا شك أن هناك لهجة للرجال وأخرى للنساء، "خاصة في تلك الشعوب التي يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء، أو أن يكون فيها كلا الجنسين بمعزل عن الآخر تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد اجتماعية معينة... وتكثر مظاهر هذا الاختلاف اللغوي كلما استحكمت حلقات الانفصال بين الجنسين، فيؤدي ذلك إلى نشأة لهجة خاصة بكلٍ منهما". (معاذ، 2009، صفحة 173/174)

إن اختلاف الخصائص اللغوية للجنسين لفت أنظار الباحثين في هذا الشأن، فراحوا يتتبعون هذه الظاهرة في لغة الحديث، ووسائل الاتصال غير اللفظية، ووقفوا على جملة من السمات التي تميز لغة الرجل عن لغة المرأة.

حيث إن هناك فروقا بين النساء والرجال في طريقة أداء اللغة، من حيث درجة الصوت، وبعض المفردات، وبعض أصوات وعبارات التعجب، فضلا عن ذلك الاختلاف الذي نجده عبر الحركات المصاحبة للغة؛ هذه الفروق تثبت أن هناك "لهجة رجالية Men's accent" و"لهجة نسائية Women's accent" في كل لغة، فكل جنس ولغته التي تميزه عن الآخر. (الخولي، 2000، صفحة 166)

ولعل هذا الأمر لم يغيب عن علماء العربية قديما، فهناك من أشار إلى هذا التباين اللغوي في كلام الجنسين، ويتضح ذلك في قول ابن جني: "إن أكثر من يتكلم بهذا الأسلوب النساء". (جني، /، صفحة 12) في إشارة له إلى بعض السمات اللغوية التي تميز لغة النساء.

كما علق الباقلائي (ت/ 403هـ) على قول امرئ القيس: "لك الولايات إنك مرجلي" بقوله: "هذا كلام النساء". (برهومة، 2002، صفحة 115)

وقد خصصت اللغة العربية صيغا وألفاظا للنساء وحدهن احتفاءً بظاهرة التانيث بمستوياته اللغوية المختلفة، نحو: كاعب، حائض، حامل، مريض، ناهد، طالق... (برهومة، 2002، صفحة 115) أما حديثاً فقد جعلت اللسانيات الاجتماعية من عامل الجنس متغيراً مستقلاً في السلوك اللغوي، إضافة إلى العامل الاجتماعي، والعامل الاقتصادي، وعامل السن. (برهومة، 2002، صفحة 118)

وقد كان الاهتمام في البداية منصباً على اختيار المشاعر والعواطف الخاصة بالفرد، سواء أكان رجلاً أو امرأة عند الحديث عن الخصائص اللغوية للجنسين؛ "فالعبارات الحديثة في حديث النساء تومئ إلى اختلافات بينهما على المستوى اللفظي أو التركيبي أو الدلالي... ولعل ذلك ما دفع الدارسين إلى اختيار هذه الخصائص المائزة للجنسين وربطها بسياقها". (برهومة، 2002، صفحة 118)

وهو ما نجده عند الجاحظ عندما طرق باب لغة الجوّاري والغلمان. (الجاحظ، البيان والتبيين، /، صفحة 165/146/71)

5.4 اللغة والجماعات العرقية:

إن لاختلاف السلالات دوراً واضحاً في التنوع اللغوي، وظهور اللهجات في المجتمع الواحد، فالعوامل العرقية تؤثر تأثيراً كبيراً في لغة الأفراد، ويتضح ذلك -على سبيل المثال- في اختلاف لهجات الجماعات العرقية في الوطن العربي؛ حيث نجد اختلافاً كبيراً في الخصائص الصوتية والتركييبية والصرفية بين أبناء الوطن العربي مشرقه ومغربيه، وهذا مردّه الاختلافات العرقية لهذه الجماعات، والشئ نفسه نجده في "اختلاف اللهجات في الولايات المتحدة الأمريكية بين السود والبيض، وأيضاً بين الجماعات المهاجرة المختلفة، وإن كانت جميعها تتحدث الإنجليزية، إلا أن لكلٍ لهجتها الخاصة، ونفس الشئ يمكن أن نلمسه في جمهوريات

يوغسلافيا سابقا، وما بينها من اختلافات لغوية بين الصّرب والكروات والمسلمين، والتي جاءت نتيجة للاختلافات العرقية، ونفس الشيء يمكن أن يقال بالنسبة للجماعات العرقية في بريطانيا... فاللغات الأصلية للجماعات العرقية تظلّ معها في مهجرها، وتظلّ نشطة وفي صراع مع لغة مجتمع المهجر؛ ومن أمثلة ذلك وجود اللغة الألمانية مع الجماعات الناطقة بها في كلّ من: الدانمارك وفرنسا وإيطاليا ويوغسلافيا، ووجود اللغة التركية لدى كلّ من الجماعات الناطقة بها في اليونان ويوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا، ووجود اللغة الفرنسية مع الجماعات الناطقة بها في إيطاليا وكسمبرج، ووجود اللغة الألمانية مع الجماعة الناطقة بها في فرنسا، واللغة الروسية مع الجماعة الناطقة بها في رومانيا، والإغريقية مع الجماعات الناطقة بها في إيطاليا ويوغسلافيا وألبانيا ورومانيا، ووجود اللغة الهنغارية مع الجماعات الناطقة بها في كلّ من استراليا ويوغسلافيا وإيطاليا". (شتا، 1996، صفحة 187)

وقد تحدّث الجاحظ عن لغات غير العرب من الموالي والأعاجم والمولّدين ممّن نزلوا بين العرب وتحدّثوا بلغتهم، ولكنهم مع هجرانهم للغاتهم الأولى ظلّوا يتكلّمون العربية بلحونهم المعروفة التي مست مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدالية والمعجمية.

6.4 اللغة والعمر:

تتنوّع لغة الفرد الواحد وتتعدّد وفق المراحل العمرية التي يمرّ بها في حياته، فكلّ واحد ممّا يتكلّم في طفولته لغة تختلف عن لغة شبابه، وعن لغة شيخوخته.

فتختلف لغة الطّفل الصّغير عن لغة البالغين، كما تختلف لغة البالغين عن لغة الشّيوخ، حيث إنّ في كلّ مرحلة عمرية تكتسي اللغة سمات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية تختلف عن المراحل الأخرى التي يمرّ بها الإنسان في حياته؛ "لننظر كيف يتكلّم طفل عمره ثلاث سنوات؟ ماذا يفعل بأصوات اللغة وصرفها ومفرداتها؟ إنّ لهجة الطّفل تتوّع متميّز عن لهجة البالغين، والفروق واسعة بين اللهجتين؛ إنّ الطّفل في مرحلة تعلّم اللغة كما يريد الكبار له، يتصارع الطّفل مع اللغة صوتا وصرفا ومفردات ومعاني، وعبر محاولاته التعلّمية القائمة على المحاكاة والتفكير معا، يؤدّي الطّفل اللغة بطريقة خاصّة، يمكن أن ندعوا لهجة الأطفال تمييزا لها عن لهجة البالغين". (الخولي، 2000، صفحة 166)

ونظرا للاختلاف الحاصل بين لغة الشّباب ولغة الكبار، فإنه قد لا يستطيع أحد الجيلين أن يفهم الآخر، هما يعيشان في بيئة واحدة، ويتكلّمون لغة واحدة، "ويطلق اللّغويون على ذلك اسم الفجوات اللّغوية بين الأجيال (Linguistic generation gaps)". (معاذ، 2009، صفحة 173)

هذا ما يصطلح عليه المختصّون في اللسانيات الاجتماعية بـ "اللغات العمرية" والتي تُعنى بإدراك السمات اللّغوية التي تميّز كل فئة عمرية، حيث إنّ اللغة تختلف في صوتها وتركيبها وصرفها ومعجمها ودلالاتها حين يتدرّج الإنسان في العمر من مرحلة الطفولة إلى الشّباب إلى الشّيوخ، حيث نجد أنّ لغة الصّبي حديث الولادة تختلف عن لغة الفطيم، ولغة الأطفال تختلف عن لغة الشّباب، ولغة الشّباب تختلف عن لغة الكهول، ولغة الكهول تختلف عن لغة المسنين والشّيوخ، وقد التفت الجاحظ إلى هذه الظاهرة حين أشار إلى لغة الأطفال وما تتميّز به من ألفاظ معينة يطلقها صغار السنّ على مسميات معينة، كأن يرمزوا للكلب بلفظ (واوا)، وللشاة بلفظ (ماه)، محاكاة للصوت الذي يصدره كلّ من الكلاب والشيء، فقال الجاحظ: "والصبيان هم الذين يسمّون الشاة (ماه)، كأنهم سمّوها بالذي سمعوه منها حين جهلوا اسمها، وقيل لصبيّ يلعب على بابهم: من أبوك يا غلام؟ وكان اسم أبيه كلبا، فقال: (وَوَوُ)". (الجاحظ، الحيوان، 1943، صفحة 288)

7.4 اللغة والمهنة:

لكل مهنة مصطلحات خاصّة بها، "ولكل مهنة هموم وشجون، فالمهندسون يستخدمون مصطلحات تختلف عن مصطلحات الأطباء، وعن مصطلحات أهل الزراعة، وعن مصطلحات أهل القانون، وعن مصطلحات أهل المحاسبة، وقد لا يفهم الشخص العاديّ ما يدور حوله من كلام (حتّى بلغته) بسبب اللهجة المهنية، وقد يتحدّث الأطباء أمامك وعنك، وأنت لا تدري ماذا يقرّرون بشأنك، إذ تعرّوا في استخدام لهجتهم المهنية". (الخولي، 2000، صفحة 165/166)

واللهجات الحرفية تعدّ من أهم أنواع اللهجات الاجتماعية، حيث يتكلّم بها أهل الحرف المختلفة كلّ حسب المجال الذي ينشط فيه، حيث أثبتت الدراسات أنّ اختلاف المهنة يؤديّ حتماً إلى اختلاف اللهجة، حيث يلجأ الزّراع والصّناع والبّناؤون والتّجارون والصّيّادون... إلى اختراع كلمات لا يعرفها غيرهم رغبة في التّعمية والتّمويه على من ليس لهم، بل نجد أنّ اللّصوص والخارجون عن القانون ومهزّبو المخدّرات يخترعون كلمات معينة، فيستخدمونها لتّمويه رجال الأمن وحفظ القانون، وتعرف هذه اللهجة باسم "اللهجة السريّة" التي لا يفهمها غيرهم، فتكون بمثابة "شفرة" بينهم حتّى لا ينكشف أمرهم؛ ولا تقتصر اللهجة السريّة على الخارجين على القانون فقط، بل يستخدمها أيضاً الذين يحمون القانون، فنراها مألوفة بين رجال الشرطة حتّى تكون بينهم شفرة معيّنة للتّفاهم وإخفاء الخطط، كما نرى أنّ اللهجة السريّة من أهمّ وسائل الجاسوسيّة، حيث يقوم الجاسوس باستخدام تلك اللهجة حتّى يتمكّن من أن يخفي معلوماته. (معاذ، 2009، صفحة 176/174/173)

إذا، لكلّ حرفة لهجة خاصّة بها، ومن علامات النّجاح أن يُحسن الإنسان التّحدّث بلغة المهنة حين يتحدّث إلى زملائه، وبعض النّاس يندمج في لهجته المهنّيّة الخاصّة حتّى ليجد صعوبة بالغة عند الاتّصال بأشخاص لا ينتمون إلى هذه المهنة. وليس هذا مقصوراً على المهن اليدويّة أو غير المثقّفة فقط، وإنّما يمتدّ ليشمل المهن الأخرى، فقد نلاحظ أنّ بعض كبار العلماء في شؤون الاقتصاد والطب لا يحسن الاتّصال خارج مهنته المتخصّصة من كثرة ما تستغرقه هذه المهنة، ومن شدّة ما يسيطر عليه قاموسها الخاصّ. (الراجحي، 2013، صفحة 63)

ولعلّ من أبرز النّصوص التي أوردها الجاحظ في هذا المجال، والتي تدلّ على اهتمامه بموافقة الحياة الاجتماعيّة للمتكلّمين للمستوى اللّغويّ، ما أورده في رسالته (في صناعات القواد) (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 375) التي تعرّض من خلالها إلى مسائلة مجموعة من أصحاب الحرف الذين انطبعت لغتهم بطبيعة الحرفة التي يمتهنونها، عن موقعة حربيّة شهدها مع أمير المؤمنين (المعتصم بالله) في بلاد الرّوم، ومن هؤلاء: السائس وهو المسؤول عن رعاية الدّوابّ، والطبيب، والخياط، والمزارع، والمؤدّب وهو المعلّم، وصاحب الحماّم، والكّناس، والشّرابي، والطّبّاخ، والفراش، والخباز، فكلّ وصف المعركة بحسب أسلوبه الدّياستمدّ مادته اللّفظيّة من معجم الحرفة التي يمتهنها، ثمّ يذكر عدّة أبيات في الغزل بطلب من الجاحظ، ولم يجد اختلافاً للغة النثر عن لغة الشعر، حيث جاء الشّعْر أيضاً متأثراً بألفاظ المهنة ومعجمها.

ثمّ يجد الجاحظ بأنّ تأثير المهنة في لغة الفرد يعدّ عيباً ونقصاً، لذا نجده قد وجّه رسالة إلى المعتصم بالله ينصحه بتعليم أولاده من كلّ فنون الأدب كي لا يقعوا أسرى أحادية النّفاة التي تفضحها اللّغة، فيقول في مطلع الرّسالة: "فخذ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلّموا من كلّ الأدب، فإنّك إن أفردتهم بشيء واحد، ثم سنلوا عن غيره لم يحسنوه" (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 381). وتلا الجاحظ كلامه بسؤال كلّ ذي حرفة عن المعركة، فجاءت أجوبتهم بلغات تطبعها ألفاظ حرفهم ومهنتهم، وكان بين أصحاب المهن والحرف الذين حاورهم الجاحظ ليكشف عن المعج اللّغويّ لكلّ حرفة، فعرض للغة أصحاب الخيول (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 382)، ولغة الأطباء (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 383)، ولغة الخياطين (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 385/384) ولغة الزراع (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 386/385)، ولغة الخبازين (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 387/386) والمعلّمين (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 388/387) وصاحب الحماّم (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 389/388) والكّناسين (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 390/389) والشّرابيين (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 390) والطباخين (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 391/390) والفراشين (الجاحظ، الرسائل، /، صفحة 392/393)، كما عرض في كتابي الحيوان والبيان والتبيين للغات الصيادين والملاحين (الجاحظ، البيان والتبيين، /، صفحة 409) واللصوص والمكديين والمتكسبين... (الجاحظ، الحيوان، 1943، صفحة 366)

5. خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية الوجيزة، يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

- 1- استطاع الجاحظ أن يشير إلى بعض الخصائص اللغوية التي تميّز متكلّم اللغة – وإن لم يصنّفها-، وذلك من خلال طبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ومستواه الثقافي وجنسه وفنّته العمرية والنشاط المهني الذي يمارسه وعرقه والمكان والزّمان اللّذين يحتضنان اللغة.
- 2- ينتج عن تلك الخصائص والسمات تنوعات لغوية تطبع الوضع اللغوي العام في المجتمع الواحد.
- 3- الهوية اللغوية انعكاس للهوية الأخلاقية والدينية للمتكلّم، وقد تجلّى ذلك في الكلام الذي أورده الجاحظ عن سيدنا المسيح عيسى عليه السلام.
- 4- اللغة علامة دالة على الزمرة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد، ومن ثمّ فهي عنوان الهوية ودليلها الأول، لأنه ليس بالضرورة القول بأن كل المتكلمين في مجتمع الكلام يستخدمون الصيغ اللغوية بالطريقة نفسها، وهذا ما يمكّن اللغويين الاجتماعيين من التعرف -وفقا لتلك العوامل الاجتماعية المختلفة- على الفروق اللغوية الحاصلة بين فئات المجتمع الواحد.
- 5- إن التغيّر الاجتماعي الذي قد تملّيه عوامل أخرى، كأن تكون سياسية أو حضارية أو تاريخية أو عوامل الهجرة أو الاستقرار الاجتماعي...، سيكون لها حتما الدور البارز في التغيّر اللغوي، لأنّ العلاقة الجامعة بين اللغة والمجتمع هي علاقة تأثير وتأثر.

6. قائمة المراجع:

- استيتية، س. ش. (2008). *اللسانيات*. مصر: عالم الكتب الحديث.
- الجاحظ. (/). *البخلاء*. مصر: دار المعارف.
- الجاحظ. (/). *البيان والتبيين*. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الجاحظ. (/). *الرسائل*. القاهرة: مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع.
- الجاحظ. (1943). *الحيوان*. مصر: مطبعة مصطفى البابي وأولاده.
- الجزولي، م. ع. (2001). *إصلاح المجتمع*. القاهرة. 2001 :
- الجوهري، م. ع. (2010). *المدخل إلى علم الاجتماع*. بيروت.
- الخولي، م. ع. (2000). *مدخل إلى علم اللغة*. الأردن: دار الفلاح للنشر والتوزيع.
- الدين، ك. ح. (/). *اللغة والثقافة* : / بكتب عربية.
- الدين، م. م. (1981). *دراسات في نهج البلاغة*. مصر: الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع.
- الراجحي، ع. (2013). *اللغة وعلوم المجتمع*. مصر: دار الصحابة للنشر والتوزيع.
- الرزاق، م. ح. (2013). *بناء الإنسان*. الأردن. 187 :
- الرزاق، م. ح. (s.d.). *بناء الإنسان*. الأردن: دار أمواج للطباعة والنشر.
- الشهرستاني. (1993). *الحلل والملل*. بيروت: دار المعرفة.
- المسدي، ع. ا. (1967). *اللغة اللسانيات وأسسها المعرفية*. تونس: الدار التونسية للنشر.
- الهاشمي، أ. ب. (2003). *جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أنيس، ا. (1976). *دلالة الألفاظ*. مصر: مكتبة الأنجلوسكسونية.

- باي، م. (1998). *أسس علم اللغة*. القاهرة: عالم الكتب.
- برهومة، ع. (2002). *اللغة والجنس حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة*. الأردن: دار الشرق للنشر والتوزيع.
- جبر، ج. (/). *الجاحظ ومجتمع عصره في بغداد*. بيروت: دار صادر.
- جني، أ. (/). *اللمع في العربية*. الكويت: دار الكتب الثقافية.
- جني، أ. (1999). *الخصائص*. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جويستان، أ. (2011). *طبقات المجتمع*. مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- جوزي، م. ف. (s.d.). *مدخل إلى علم اللغة*. القاهرة: 1989.
- حسان، ت. (2001). *اللغة بين المعيارية والوصفية*. القاهرة: عالم الكتب.
- داود، م. (2001). *العربية وعلم اللغة الحديث*. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- دمياطي، أ. ع. (2017). *مدخل إلى علم اللغة الاجتماعي*. إندونيسيا: مكتبة لسان عربي للنشر والتوزيع.
- شنا، ع. (1996). *علم الاجتماع اللغوي*. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- طليمات، غ. م. (200). *في علم اللغة*. دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة.
- ظاظا، ح. (1990). *اللسان والإنسان*. دمشق: دار القلم.
- غالي، ن. ب. (2023). *نحو لسانيات اجتماعية عربية من النظرية إلى التطبيق*. السعودية: مجمع الملك سلمان العلمي للغة العربية.
- غالي، ن. ب. (2023). *نحو لسانيات اجتماعية عربية من النظرية إلى التطبيق*. السعودية: مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية.
- فرحان، ن. د. (2023). *مقاربات سوسيو لسانية*. بغداد: كلية التربية ابن رشد للعلوم الإسلامية.
- فرحان، ن. د. (2023). *مقاربات سوسيو لسانية*. بغداد: كلية التربية ابن رشد للعلوم الإسلامية.
- فندريس. (1952). *اللغة*. القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية.
- كرامش، ك. (2010). *اللغة والثقافة*. قطر: وزارة الثقافة والفنون والتراث.
- معاذ، م. م. (2009). *الأنثروبولوجيا اللغوية*. مصر: دار المعرفة الجامعية.
- هدسون. (2014). *علم اللغة الاجتماعي*. مصر: عالم الكتب.
- هلال، ع. أ. (1986). *علم اللغة بين القديم والحديث*. شبرا: مطبعة الجبلاوي.
- وافي، ع. ع. (1973). *علم اللغة*. القاهرة: دار النهضة.